قصة قصيرة:

البحث عن المدفن

أ.د.ظهور أحمد أظهر

قد كان فصل الربيع فى ذلك اليوم فى قمته من الرونق و الجمال والبهجة والسرور، ومن روعته المعهودة ، وكانت المناظر الرائعة الخلابة من حقول (بنجاب)، أحد الأقاليم الأربعة لباكستان، تدعو الناظر المتفرج للتمتع بها كما أن الصبح المبهج المضئ فوق تلك المزارع الزاهية فى ذلك اليوم المبارك الفريد لم يكن أقل بهجة و بهاء و فرحا و سرورا من المناظر والمشاهد لتلك الأراض الخصبة الخضراء، التى تزود الملايين من البشر بالمواد الغذائية الوافرة، وقد بدا أثر ذلك كله فى نفوس المشاهدين المتفرجين، وقد دل على ذلك وجوههم الناضرة المستبشرة ، وهم يتجولون بين الزروع الزاهية، و يتمتعون بنسمات الهواء العاطرة ، التى كانت تأتيهم من مزارع القمح والشعير الحافلة فتزيد متعة إلى متعتهم ، وتضيف سرورا إلى سرورهم!

وأما الولدان الصغيران ، خالد وماجد، ابنا (محمد على) الباكستانى الشهيد، الذى ضحى بروحه الغالية واستشهد مجاهدا فى سبيل فلسطين الثورة ، فقد كانا فى غاية الفخر والسرور، إذ هما كانا يمشيان، ولأول مرة، فى المزارع لأبيهما ، فهذا هو خالد تراه ، وقد رفع رأسه فألقى نظرة بعيدة المدى على المزارع المترامية الأطراف ، وقد غمره الفرح والسرور، وهذا ماجد ينظر إلى عمه (نياز على) فيرى فى وجهه الباسم المطمئن آمالاً بعيدة

فيستبشر بمستقبله الزاهر، ويأمل أن وجوده سوف يعوضه خير تعويض عن موت والده الشهيد، وأحيانا كان الواحد منهما يخاصر أمه الحنون متدللا بها أو يأخذ بيدها فينظر إلى وجهها المتلألئ البرئ الذى زادته أشعة الشمس المضيئة حسنا وجمالا!

وقد كان كل ذلك طبيعيا، فقد جمع الله بين الأسرة بعد فراق دام زمانا، وقد غمرها الفرح بعد أن غاب عنها طويلا ، وقد أتيح لها أن تتمتع، ولأول مرة ، بذلك الجو الهادئ المطمئن ، وبالنظر إلى تلك الحقول المترامية الواسعة ، والزروع الزاهية المترفرفة، فقد بدا للولدين الصغيرين ولأمهما الفلسطينية فاطمة ، وهم فى وسط المزارع الحافلة بزروع القمح والشعير المهتزة المترفرفة بنسمات الربيع العاطرة ، كأنها مياه زرق متلاطمة تثيرها نسمات الهواء فتزخر وتزأر وكأنها مياه البحر الأبيض المتوسط على شاطئ من الشواطئ الجميلة لأرض فلسطين العربية الأبية الثائرة!

فقال (نياز على) وهو يخاطب زوج شقيقه الشهيد فاطمة: "هذه هى مزارعنا الواسعة يا فاطمة! وهى من ميراث آبائنا قد ورثناها من والدنا، رحمه الله، ولكننا لم نستطع أن نضيف إليها شيئا جديدا من كسبنا، وغاية ما استطعناه هو الاحتفاظ بها والذود عنها أو التحسين والتنسيق لها!"

"و ذلك ليس شيئا ضئيلا أو تافها يا أخى! إذ الاحتفاظ بالتراث الغالى، والذّود عنه أو التحسين والتنسيق له، إنما هو عمل عظيم دون شك ، وأرى أن الجيل الناشئ لو تمكن من الاحتفاظ بتراث السلف والذود عنه واستطاع أن يضيف شيئا جديدا إلى حسنه و جماله لكفانا جميعا!" قالت فاطمة وهى ترد عليه.

" إن صنائع الأقدار لغريبة و مدهشة يا سيدتى! فقد رزقنى الله بذكريات عاطرة متجددة من شقيقى الشهيد الذى وهبه الله خالدا و ماجدا كما أنه قد أكرمنى بسعيدة ورشيدة" قال نياز وهو ينظر إلى فاطمة مبتسما، ثم مسح رأسى اليتمين وهو يحنو لهما ويشفق.

وقد حدث ذلك بعد أن انتهى الغرب الصليبى من تطبيق" إعلان بلفور" والضربة الأخيرة الشنيعة المؤلمة التى كالها الاستعمار الصليبى للشرق الأوسط الإسلامى حيث نفذ السهم المسموم الصهيونى فى كبده وسويداء قلبه فقد احتل الإرهاب الصهيونى غرب القدس الشريف- تلك المدينة الآمنة المقدسة التى لم تنس التعامل العادل الكريم من قبل سيدنا الفاروق الأعظم رضى الله عنه حين دخلها فاتحا، وبالعكس من ذلك قد أساء إليها الصليبيون حين فتحوها فارتكبوا الفظائع من الظلم والوحشية فذبحوا أهلها من المسلمين المصلين فى المسجد الأقصى حتى امتلأ فناؤه وفاض بدمائهم التى سالت بها الأزقة وصار خيل الفرسان الصليبيين تفر من الحران ثم تلاهم صلاح الدين الأيوبى فانتصر عليهم وانتزع منهم القدس الشريف بالقوة ودخله عنوة فسمح للصليبيين بالخروج آمنين بما لديهم من الأمتعة والأموال- ذلك القدس الشريف قد دهاه الاحتلال الصهيونى ولم يبق منه لدى مسلمى فلسطين إلا قسمه الشرقى! وهذا القسم الشرقى أيضا كان يحكمه الأمير عبدالله بن الحسين شريف مكة ، فهاجرت فاطمة بنت فلسطين إلى باكستان مع ابنيها الصغيرين، خالد وما جد، عاملة بما أوصاها به زوجها محمد على الباكستانى الشهيد!

وكان (نياز على) ، بصفته إقطاعيا صغيرا لإقليم بنجاب الأخضر الخصب، قد بنى سكنا نظيفا فسيحا للفلاحين فى مزارعه الموروثة، وقد أفرد لنفسه و ذويه و ضيوفه غرفة خاصة جميلة فى ناحية من ذلك السكن، يراها الناظر إليها من الخارج فتبدو له بسيطة متواضعة إلا أن داخلها لم يكن أقل أثاثا وزينة من غرفة الضيوف أو الأوضة الفاخرة فى قرية من القرى البنجابية، فقال نياز وهو يخاطب زوجه شقيقه و ولديه الصغيرين :" قد أرادت أم سعيدة أن ترافقنا فتشاركنا فى فسحتنا هذه ، ولكنها تخلفت عنا لتعد لكم فطورا قرويا بنجابيا جيدا، و أراها لم تنته بعد من تمخيض اللبن فإذا انتهت من ذلك ستعد لنا خبزا بالزبدة الخالصة النقية على طريقة أهل بنجاب فتعالوا نصعد إلى السكن لكى نريكم مافيه من الغرف المريحة والمؤنات الأخرى التى يضمها هذا السكن الهادئ المريح!!"

وقد كان ذلك مما أثار اهتمام خالد وما جد، فجعلا يصيحان فى فرح و سرور وهما يتحدثان بالأردية التى تخالطها عربية ، وبلهجة العرب ونطقهم:" نعم! ياعمنا الكريم! لا بد أن نرى ذلك السكن ! ونريد أن نجنى ثمار تلك الأشجار!!"

ولم تكد تنتهى صيحاتهما وكلماتهما حتى أخذا يستبقان نحو السكن المزرعى ، وأسرعا إليه و قد تخلف عنهما أمهما وعمهما، وقد كان من حظهما السعيد أن نياز على كان قد أمر الفلاحين أن يشدوا الكلاب الحارسة للسكن وإلا فقد كان من المحتوم أن يحدث مالا يسر أبدا، و بمجرد دخول الولدين إلى السكن المزرعى، بدأت الكلاب تنبح نبحا عاليا، وتحاول أن تتحرر من ربقهما مما أفزع الولدين فوقفا خائفين مذعورين حتى لحق بهما

العم والأم فجعل العم يزجر الكلاب وينهرها إلى أن سكتت فجلست و كأنها لاحراك بها، و فى أثناء ذلك سارع الولدان إلى أشجار النبق والتين، وأما نياز على وفاطمة فقد استراحا جالسين على الكراسى القروية الموضوعة بالتنسيق فى فناء السكن.

" أنت تتحدثين بالأردية بالطلاقة يا فاطمة! فأين وكيف تعلمتها؟! سأل نياز وهو يتحدث بالأردية إلى زوج شقيقه.

" قد جمع الله بين الأسرتين خلال حجتهما الأولى لبيت الله الحرام فقد انحدرت أسرتى- أنا و أبوى و أخى الوحيد فريد- إلى الحجاز خلال نفس السنة التى حج فيها محمد على مع أبويه، وقد كان والدى الشيخ أمين الشنطى والعم (ولاية على) زميلين فى الدرس بمدرسة الشيخ حسين المكى حيث درسا معاً أربع سنوات، و أخذا سند الحديث النبوى من الشيخ المكى، وقد جمع الله بينهما بمناسبة الحج بعد عشر سنوات تقريبا فتعارفنا و تآنسنا و ألف الله بين قلوبنا ، وأعجبت بأم محمد على و أحببتها وكانت تجيد العربية ، و تحفظ القرآن ، وكانت من المجودين و أحبتنى كثيرا وقالت لى يوما: ليس لى بنت و أريدك أن تكونى لى بنتا و أن ترافقينى إلى الهند! فقلت لها: أنت أمى و أنا بنتك دون شك، وأما السفر إلى الهند فلا (ولم يخطر ببالى أننى سآتى يوما إلى باكستان!!) فمنذ تلك اللحظة بدأت ألتقط كلمات الأردية من أفواه الأسرة حتى تعلمت الكثير الكثير منها خلال إقامتنا بالحرمين الشريفين لمدة شهرين فقط، وانقرضت أيام الحج وانتهينا من المناسك و الزيارات ، ثم حدث الحادث الفجيع، وأردنا أن نعود إلى القدس الشريف ولكن قلبى كان مع المريضة ، فإذا بالوالد الكريم يأمرنى أن أتخلف عنهم

لكى أعيد المريضة و أقوم بخدمتها حتى تبرأ ويشفيها ربها، وكان هذا الكلام كان تعبيرا لما دار فى قلبى ثم قال لى الوالد وهو يودعنى: إذا برئت السيدة وسافرت مع أسرتها إلى الهند فتحولى إلى بيت الشيخ حسين المكى حتى آتيك و آخذك معى!" وهكذا أتيح لى أن أتقن الأردية حتى أننا جميعا كنا نتحدث بها، ونحن داخل المنزل! فهذه هى قصتى مع الأردية التى أعجبتك ، وكان محمد على يفضل أن يتحدث إلى ابنيه بالأردية وأنا بدورى كنت أشجعهما على الحديث بها معى دائما!!" قالت فاطمة وهى تحكى قصتها مع الأردية.

" نظام القدرة يا فاطمة لغريب جدا بل هو سرٌ غامضٌ قد لا يستطيع الإنسان أن يدركه! كيف يسبب الله لشئ إذا أراده! ولكنه سبحانه و تعالى لرؤف رحيم و بعباده خبير بصير!!" قال نياز وهو يعلق على قصتها.

" صدقت يا أخى! فقد قدر الله لنا أن آتى هنا بعد أن يفارقنى زوجى مع خالد وما جدا! فلولا أننى أتقنت الأردية و اكتشفت حبك و إخلاصك لنا جميعا من خلال رسائلك المليئة شفقة وحبا و حنانا ، لما أمكن لى أن أتحمس للسفر إلى بلد لم أعرفه! فأنا أيم وهما يتيمان صغيران ليس لنا سند ولا من يؤوينا ويرحب بنا فى هذا البلد الغريب بل فى هذه الدنيا الغريبة كلها!!" كلام قالته فاطمة وهى تحاول أن تمسك دموعها من عينيها المخضلتين.

" لاتفكرى ولا تحزنى يا فاطمة أختى العزيزة! فإنك لست فى الغربة، و إنك أيم ولكن زوجك شهيد قد ضحى بنفسه من أجل فلسطين، فإن دماء الشهداء هى التى تحرر البلاد! وسوف تتحرر فلسطين يوما وتكون

دولة مستقلة باذن الله! فكونى على ثقة ويقين! بأن الله عزوجل قد قدرلنا الأفراح ولك ولابنيك منها نصيب أوفر! وسوف يسرك القرار الذى اتخذناه نحن ، أنا وزوجتى! وقد اكتملت بكم أسرتنا وقد كان من قدرة الله و أمره أن ينام أبوانا فى أرض "بيت الله الحرام وشقيقنا فى أرض القدس الشريف إلى يوم الحشر! ولكن صدقينى يا فاطمة إن قدومكم قد ملأ قلوبنا فرحا و سرورا! ويبدولى كأن أبى و أمى وشقيقى قد عادوا إلينا اليوم جميعهم! أنتم عزنا، و أنتم سرورنا، وأنتم لنا كل شئ نريده أو نتمناه!" كلام قاله نياز على وقد دمعت عيناه!

" تسلم أنت يا أخى الحبيب! أبقاك الله لنا، وأن تعيش أسرتنا فى ظلك الظليل!"

" طيب يا فاطمة! علينا أن نعود الآن إلى البيت لكيلا نتأخر عن الفطور، وللحديث بقية ، وسوف نكمله بحضور أم سعيدة التى تنتظرنا على الفطور!"

و أما خالد وماجد فقد أعجبهما الفطور الذى أعدته أم سعيدة كأنهما قد عاشا فى بنجاب منذ الطفولة، وقد عرفا التقاليد الثقافية البنجابية وتعوداها بمافيه الفطور البنجابى! وأما فاطمة فقد قالت لأم سعيدة وهى تستحسن الفطور الذى أعدته:" اسمعى يا أختى الحبيبة أم سعيدة ! إننى سوف أنوب عنك فى الشئون المنزلية كلها، وأتحمل مسئولية مخض اللبن وإعداد الفطور والأكل..."

" شكرا جزيلا يا فاطمة! و ذلك ما أتمناه و آمل فيك، إلا أننى لا أريد أن أثقل عليك كثيرا، و أحملك هذه المسئوليات الضخمة ثم أن مخض اللبن عمل فنى وصعب فى نفس الوقت..!"

" أصبت! إنه عمل فنى يحتاج إلى الخبرة والعناء ولكننى قد جربته و تعلمته من السيدة أم محمد على و نحن بمكة المكرمة".

" طيب! نحن إذن ، قد تتملذنا على أستاذة واحدة و منها تعلمنا كل شئ" قالت أم سعيدة وهى تلح على فاطمة أن تأكل و لكنها شكرت لها ثم قالت لها:

" قد كان عمنا (ولاية) يحب الزبدة واللبن وكان يأتى بالحليب أو الزبادى وكان من واجبنا أن نعد له الزبدة و اللبن بغية مرضاته! "

يا أم سعيدة!! قد ارتفعت الشمس و اشتد الحر، فما رأيك لو تحولنا إلى ظل شجرة التوت فاستمعنا إلى ما تبقى من حديث فاطمة؟!" قال نياز وهو يقوم لكى يتحول مع زوجه و فاطمة إلى ظل الشجرة فى فناء البيت.

" نعم يا فاطمة! تفضلى لكى نأوى إلى الظل و نستمع إليك فأنت شاهدة عيان لما حدث بأمنا فى لحظاتها الأخيرة ، وكيف قضت أيامها الأخيرة وهى تعانى من الجروح والألم" قالت أم سعيدة وهى تتابع زوجها ومعها فاطمة التى لم تكد تستقر فى مقعدها حتى أخذت تحكى القصة وهى تغالب دموعها وتحاول أن تخفى حزنها وتقول:

" نعم يا أم سعيدة! فقد قدر لى أن أحكى لكم كل هذه القصة المليئة بالأحزان والآ لام! قصة ما حدث بأمنا فماتت وقصة زوجى الشهيد!" قالت فاطمة ثم استعبرت باكية وقد أخفت وجهها بين كفيها، فحاولت أم سعيدة

و زوجها أن يُعزياها و يخففا من حزنها ثم قالت لها أم سعيدة:" لا نود أن نفجعك يا فاطمة ولا نستطيع أن نراك تبكين أو تنتحبين وقد نؤجل القصة إلى وقت آخر!"

" لا يا أختى العزيزة! فلست أدرى أهى دموع الحزن على من فقدناهم أم دموع الفرح لما جمع الله بيننا لكى نقاسم الأحزان والأفراح معا!" قالت فاطمة ثم بدأت تحكى و تقول:

" فقد خرجت الأم ذات ليلة فى ظلام حالك فزلت قد مها فسقطت فانكسر ظهرها ورجلاها كلتا هما و أصيبت بضربات على الرأس مما جعلها لا تتحرك ولا تتكلم وحتى لا تحس بشئ! وكان العم ولاية قد منعنى منعا باتا أن أحكى شيئا أو أن أخبر بذلك أحدا من الحجيج و الزوار القادمين من بلاد شبه القارة، وقد عالجها الأطباء الأجانب المرافقون لقوافل الحجاج ثم ارتحلوا فلم يبق بمكة من يداويها أو يعالجها ، حيث لم تكن توجد تسهيلات طبية فكانت ، كلما استفاقت واستطاعت أن تنطق ، قالت ملحة مصرة للعم ولاية: لله أرجوك يا (ولاية على) لا تحرمنى من المدفن بمكة المكرمة فى جنة المعلا! لا تعد بجثتى الهامدة الخامدة إلى بلاد الهند فلطالما تمنيت على الله أن أدفن بأرض الحرمين وقد استجاب الله دعائى وحقق ما تمنيت عليه جل شأنه!! فكان العم ، رحمه الله، يطمئنا ويقول: لا يهمك يا آمنة! سأنفذ الوصية إن شاء الله وأتمنى على الله أن أجدلى مدفنا بجوارك و أن أبعث يوم الحشر حيا معك! وقد فعل!!

وكان أستاذه و أستاذ والدى الشيخ حسين المكى كريما محسنا فقد أوصى به إلى مدرسة بمكة ، قد أنشأها بعض ملوك الهند المسلمين المحسنين،

فضم إليها قدرا كبيرا من الوقف ، فوجد العم بها وظيفة براتب شهرى جيد!"

فقال نياز على فى شئ من الدهشة: و الاضطراب: " سبحان الله! كان الوالد رحمه الله يقول لى دائما و يخبرنى به فى رسائله التى كان يبعث بها إلى بأن أمنا كانت قد بدأت تصر و تلح فى الإصرار عليه أنها لا تريد أن تغادر مكة المكرمة! أو أنها أرادت أن تبقى هى مع الوالد و تقضى بها سنة كاملة حتى تدخل الحجة الثانية على أقل تقدير كما أنه كان يخبرنى و يقول بأن شقيقنا محمد على الشهيد لم يكن يريد أن يعود إلى بلده حتى يكمل علوم الحديث على علماء بيت الله الحرام...!"

فردت عليه فاطمة وهى تحكى لهما القصة:" نعم ! و فعلا قد أكمل محمد على دراساته الحديثية و أخذ سندها من الشيخ حسين المكى، وقد أوصى به هو الآخر إلى رئيس تلك المدرسة نفسها فوظفوه أيضا فأخذ يدرس بها براتب شهرى وكانت الحرب العالمية الثانية قد اندلعت وكان أهل مكة و من إليهم من المقيمين يشعرون بعافية وسلام بالبلد الآمن الحرام، وقد أتيح لى أن أكمل دراساتى على العم ولاية على كما أننى أخذت سند الحديث عن محدث مكة المكرمة الشيخ حسين المكى بالإضافة إلى دراسة اللغة الأردية واتقانها فى البيت على أهله، وقد بدا لى خلال أيام قليلة كأن الأردية هى لم يعد غريبة على بل هى لغتى الثانية ، ولم يمض طويل من الوقت حتى كنت قد بدأت أرغب فى دراسة الشعر الأردى وقد أنهيت قراءة صوت الجرس وضرب الكليم للعلامة إقبال على العم رحمه الله كما أن محمد على الشهيد

هو الآخر كان يساعدنى فى إتقان الأردية فكان يتحدث إلى بالعربية و كنت أرد عليه بالأردية دائما..."

" ولكن ماذا حدث بالسيدة أمنا آمنة أقصد كيف توفيت هى؟" قالت أم سعيدة وهى توجه سوالها إلى فاطمة.

" حدث ذلك بمناسبة الحجة الثانية ، فقد فازت روحها ولما يغادر العم ساحة عرفات فقد انتهى من مناسكه بمنى و أفاض إلى بيت الله الحرام فأكمل طوافه ثم سارع إلى المنزل ففاجئته بالخبر المفجع مما أدهشه و أحزنه كثيرا فظل ساكتا صامتا لا يتحرك كأن لطمات الهم قد ذهبت بلبه فطارت به إلى دنيا الخيال البعيدة فلم يفعل غير الاسترجاع ثم قال وهو يخاطبها:" طيب! يا آمنة ! فقد سبقتنى و سألحق بك عما قريب لكى أدفن بجانبك فإن تراب قبرك هو وطنى منذ الآن! وسوف نبعث أحياء معا من جنة المعلى إن شاء الله! فهذا هو عهدى لك و دعاء من الله عزوجل!" ثم ظل العم جالسا وقد وضع رأسه بين ركبتيه حتى جاءه والدى بعد أن أنهى المناسك".

" سبحان الله ! فهذا غير ما أخبرنى به الوالد الذى كتب فى رسالته إلى قائلا: قد توفيت أمك إلى رحمة الله بعيد فريضة الحج فقد أصرت و ألحت فى إصرارها بأن تدفن بمكة المكرمة أما أنا و محمد على فسوف نأتى و نعود إليك ولكن مؤقتا!" أضاف نياز على.

" ولكن قولى لنا يا فاطمة ! كيف غادر محمد على مكة المكرمة ومتى وصل إلى القدس الشريف"!" سألت أم سعيدة.

" ولقد قال لى اليوم الأخ نياز على فأعجبنى قوله هذا بأن الأقدار لها نظامها الخاص الذى لا نستطيع أن نراه إلا أن القدرة الإلهية لتطبق نظامها

بكل قوة و بكل دقة! والواقع أنه كان معجبا بالزعيم السياسى المعروف (محمد على جوهر) وكان مولعا بسياسته و أعماله الأدبية و أفكاره السياسية، وكان يحتفظ معه بصوره الجميلة و كتاباته الرائعة ، وكثيرا ما كان يعرضها على بكل إعجاب وتقدير، وكان يقول " لا بد لى أن أزور القدس الشريف ولو مرة واحدة و سوف أزور قبره هناك و أن اليهود قد ملأوا أرض فلسطين رعبا و إرهابا، و أخذوا يخطفون عقارات الفلسطينيين و يحتلونها بمكرو كيد، و بخداع واحتيال، وقد وعدت أخاك فريدا و أباك يا فاطمة بأننى سآتى إلى فلسطين إذا شفى الله أمى و أذن لى أبى بذلك، و سوف أنضم إلى حركة المتطوعين التى نظمها مفتى فلسطين الأكبر الشيخ أمين الحسينى لكى أتمكن من مساعدة إخوانى الفلسطينين، فتلك هى رسالة حياتى و أمنيتى الغالية التى أعيش من أجل تحقيقها! وعندما تتحرر فلسطين و تستقل كدولة عربية إسلامية ، حينئذ سوف أغادرها لوطنى الإسلامى فى شبه القارة لكى أشارك فى حركة التحرير و الاستقلال التى يقودها قائدنا الأعظم محمد على جناح فى ظلال الرابطة الإسلامية لمسلمى شبه القارة، إن لنا ولإخواننا العرب عدو مشترك وقد عرفناه ألا وهو الاستعمار البريطانى الغاشم، ولكن لنا عدوان آخران وهما فى بادى الرأى إثنان مختلفان ولكنهما متحالفان متحدان فى الحقيقة، والقاسم المشترك بينهما هو عداؤهم و بغضاؤهم و حقدهم ضد المسلمين ألا وهم الهنادكة المشركون واليهود" وهنا سكتت فاطمة فقال لها نياز على وهو يجدد ذكرياته عن والده :" والله! إن هذا لهو رأى الوالد و موقفه و موضوع الحديث المرغوب فيه عنده! فقد سمعته خلال الحلقات الدراسية و فى خطب الجمعة الأسبوعية التى كان

يلقيها فى جامعنا هذا، فيقول بأنه فئتان من الناس هما أعدى أعداء الإسلام و أشد الناس عدواة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا...!"

" فكان عمنا ، إذن ، يلقى خطب الجمعة؟!" قالت فاطمة متسائلة.

" نعم يا فاطمة! فقد كانت أسرتنا هى أسرة العلم والعلماء وكانت مكلفة بالتدريس والوعظ و إصلاح العامة وإرشادهم من أهل القرية من قبل الحكومة خلال العصر المغولى وكانوا قد أقطعوا لنا أرضا واسعة تفى بحوائجنا و نستغنى بها عن المعاش، وقد تبقى لنا منها القليل، وأخذ أو بيع أكثرها، وقد بنى أسلافنا مسجدا جامعا للقرية بما كانت الأراضى تجدى علينا من الدخل، ويعتبر هذا المسجد خاصاً بأسرتنا و يعرف باسمها و المسجد يضم مدرسة كبيرة...!" قال نياز على وهو يشرح لها خلفية الأسرة.

" وكنا نسمع الأنباء المؤلمة المحزنة ، ونحن بمكة المكرمة ، عن تطاول اليهود على مسلمى فلسطين و ممتلكاتهم مما جعل العم ولاية على يكثر الحديث عن عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين، ويرجع فى ذلك إلى القرآن الكريم الذى يقول: "لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا" وكان يحكى لنا وقائع السيرة النبوية فيقول بأن يهود يثرب وخيبر كانوا يتآمرون مع المشركين ضد الإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين، ويدسون الدسائس فأما مشركو مكة فقد قطع الله دابرهم فصاروا اسطورة و نسيا منسيا، وأما اليهود فلا يزالون يضمرون لهم العداء والبغضاء رغم أن الحكومات الإسلامية قد أنقذت اليهود من الاضطهاد، و أحسنت إليهم كما أحسن الحكام والملوك المسلمون إلى الهنادكة المشركين فى شبه القارة، و أغدقوا عليهم النعم و ولّوهم المناصب إلا أنهم قد تناسوا

كل ذلك، وانضموا إلى المستعمر البريطاني وصاروا من أعوانه و أحبائه المخلصين له، و أخذوا يعادون المسلمين ويعتبرونهم نجاسة وقذارة يجب أن يطهروا منهم البلاد..!" سردت فاطمة حديث عمها.

" حسنا يا فاطمة! فقد جمعت المعلومات القيمة عن الهنادكة ويا ليت إخواننا العرب أيضا اطلعوا على هذه الحقائق فقد رأيناهم يعتبرون الرجال الهنادكة زعماء و أبطالا من أمثال (نهرو) الذى سموه" رسول السلام" رغم أنه هو وحده المسؤل عن مشاكل المسلمين فى شبه القارة كلها مثل التقسيم غير العادل و تعويق قضية كشمير" قال نياز على.

" وهذا ما كان يحكيه محمد على لشباب فلسطين بالقدس الشريف إلا أن معظم هؤلاء الشباب لم يكونوا يفهمون مايقول لهم والبعض منهم كانوا يتقاتلون معه" قالت فاطمة.

" خليه يا فاطمة فذلك كلام لانريده الآن، وإنما يهمنا أن نعرف كيف وصل الأخ محمد على إليكم بالقدس الشريف وما ذا جرى هناك فيما بعد!؟" داخلت أم سعيدة وهى تحاول أن تغير مجرى الحديث.

" كنت قد سافرت إلى القدس مع الوالد بعد أن انتهينا من تدفين الأم، وقد تراسل العم مع والدى كما أن محمد على كان يراسل والدى بين حين و آخر ويبدى فيها عن شوقه إلى فلسطين!!"

" أولم يكن يراسلك أنت يا فاطمة ؟ قولى بكل صراحة!" قالت أم سعيدة وهى تقاطع حديثها.

" لا أبدا يا أم سعيدة! لم يكتب إلى إلا رسالة واحدة قبيل سفره إلى القدس الشريف وقال فيها بأنه لا يستطيع أن يمكث هناك بعد وفاة أبيه و أنه

قد قرر السفر إلى القدس والانضمام إلى حركة تحرير فلسطين، وقد أعطيت الرسالة للوالد الذى فاجأنى بقوله الصارم الحاسم: يا بنيتى! هذا ابن صديقى العالم الصالح يأتينا وقد استقر رأيى على أن أزوجه بك فهل لك رأى آخر غير هذا؟!" قالت فاطمة فى شئ من الاستحياء فسكتت فسألتها أم سعيدة تقول:" فماذا كان جوابك أو رد فعلك؟ هل سكت أم رأيت رأيا آخر؟!"

" لا يا أم سعيدة! فما للسكوت دخل ولا إلى الرأى داع، فقد قلت للوالد بكل صراحة و دون أى تردد بأنه هو ابن صديقك المخلص كما أنه ابن أستاذى الكريم والرأى رأيك! افعل ماتشاء، وأنا على ثقة و يقين بأن محمد على كان يعتبرنى ابنة لصديق أبيه وتلميذة لأبيه الفاضل، وذلك لأن رأى الوالد قد فاجأه و أدهشه كما كان قد فاجأنى و أدهشنى!" قالت فاطمة بكل صراحة وطمانينة.

" ثم ماذا حدث وكيف كان يا فاطمة؟! " قالت أم سعيدة وهى تسأل.

بعد وصول محمد على إلى القدس الشريف بأسبوع قد تم عقد زواجنا فى مسجد حينا بعد صلاة الجمعة و انتهت القصة!!" كان جواب فاطمة الموجز.

" لا ! لم تنته القصة يا فاطمة و إنما كانت هى بداية القصة!!" قالت أم سعيدة وهى تبتسم.

" خليك هذا الكلام يا أم سعيدة! فللحديث بقية والحياة مستمرة! فالموضوع الأصلى إنما هو حياة أخينا المجاهد الشهيد! إننا نريد أن نعرف قصته!" قال نياز على وهو يغير مجرى الحديث.

" كان يهود العالم قد أقبلوا على فلسطين بعد إعلان بلفور، وكان الشيخ محمد على جوهر قد اختار القدس مدفنالـه مما أثر كثيرا فى نفوس مسلمى فلسطين فأخذوا يحبون إخوانهم من مسلمى شبه القارة من أعماق قلوبهم وبكل احترام و إعزاز، وكان الدكتور العلامة محمد إقبال قد لبى دعوة السيد أمين الحسينى مفتى فلسطين الأكبر فشارك فى مؤتمر العالم الإسلامى مما دعم هذه العلاقات الودية الأخوية كما أن القائد الأعظم محمد على جناح كان قد ندد تدفق اليهود إلى فلسطين بعد إعلان بلفور بكل قوة و شدة، وهذا ما سمعنا به بالإذاعات و قرأناه فى الجرائد كما أننا قد عرفنا أن شباب فلسطين المسلمين، من أتباع مفتى فلسطين الأكبر، كان قد سرهم غاية السرور حين علموا بأن مسلمى شبه القارة قد أخذوا يطالبون بإنشاء دولة باكستان المستقلة لهم!!" ... فتدخل نياز على ، وهو يقاطع حديث فاطمة ، قائلا:" نعم يا فاطمة! فهذه هى أسس الصلات الأخوية والعلاقات الودية التى تربط رباطا وثيقا بين مسلمى فلسطين وباكستان وهى التى تدعم الأخوة الإسلامية ! ولعلك قد سمعت- وأيضا سمع الإخوة العرب فى كل مكان- بأن القائد محمد على جناح كان قد زار مصر قبيل إنشاء باكستان فسأله بعض الصحفيين المصريين الذين تأثروا بما أشاعه حزب الكانجرس الهندوكى فقالوا له: " لماذا لا تتعاون أنت مع غاندى و نهرو فى طرد الإنجليز من شبه القارة ومن أجل تحرير البلاد واستقلالها؟! أفما يضر هذا الخلاف والتفرقة بحركة الاستقلال؟!" وقد رد عليهم القائد بقوله:" قد لا تستطيعون أن تفهموا أوضاع الهند الراهنة الآن وسوف تعرفون فيما بعد

مدى أهمية باكستان وضرورتها لمسلمى شبه القارة وإخواننا العرب فى نفس الوقت ! والواقع أننا نكافح من أجلنا أنفسنا ومن أجل العرب!"

" نعم يا أخى! وكان محمد على قد أخبرنى به! إنه كان يخبرنى بكل ما تلقاه من العم ولاية على من خلال الحلقات الدراسية والمجالس التربوية والأحاديث اليومية! وقد علمت منه كل ذلك و وعيته وأبث به إلى أولادى و أطلعهم عليه!" قالت فاطمة.

" ولكننا نريد يا فاطمة أن نسمع منك المعارك الجهادية التى دخلها أخونا محمد على الشهيد!؟" قالت أم سعيدة وهى تدعوها إلى صلب موضوع الحديث.

" اجتمع عدد من شبان فلسطين المسلمين فى منزلنا بعد صلاة الجمعة يناقشون ما كان يهدد مستقبل فلسطين بالفظائع الإرهابية الصهيونية فسمعت محمد على وهو يخاطب أبى قائلاً:" عمى يا سيدى! قد عرفت أنت بأن الغرض من قدومى إلى هذه المدينة المقدسة إنما هو خدمتى لها والدفاع عن أرض فلسطين والذود عن شعبها الكريم! الأرض التى اختارها الشيخ محمد على جوهر ليكون له بها المدفن وقد جاءها العلامة محمد إقبال ليشارك زعماءها المدافعين لها المكافحين من أجلها! فلقد جئت لهذه فلسطين المسلمة لكى أكافح من أجلها مع أبنائها جنبا بجنب!!"

" ثم سمعت والدى وهو يخاطب الشباب قائلا: المشكلة يا شباب الإسلام هى هجرة اليهود إلى فلسطين و إقبالهم عليها من كل ناحية وصوب وتكالبهم على شعبها المسلم الغر المتخلف ! فقد أخذ هؤلاء الصهاينة يخطفون أراضى مسلمى فلسطين المسلم بالخداع والكيد والمكر وأما

المسلمون الأميون المتخلفون البسطاء فقد بدأوا ينخدعون بحيلهم الماكرة، ولا يعرفون شيئا عن مستقبلهم المظلم الحالك الخطير الذى ينتظرهم !!"

" فقام محمد على فألقى كلمة تحدث فيها عن الجهاد وضرورته و عن فلسطين ومكانتها و عن خطته الجهادية للدفاع عن مستقبل فلسطين والذود عن شعبها، فكان مما قال بتلك المناسبة : فعلينا أن نركز جهودنا و كفاحنا على جبهتين فى نفس الوقت نمنع اليهود عن دسائسهم ونحبط مخططاتهم فى ناحية و فى ناحية أخرى ننبه المسلمين و نوقظهم و نعدهم للدفاع عن ديارهم والاحتفاظ بمستقبلهم وصيانته!"

" بارك الله فيك و جزيت خيرا يا أخى محمد على! ولقد أصبت و أدركت القضية بأبعادها وجئت بحلولها المخططة الناجحة بإذن الله! قال ذلك أخى فريد وهو يؤيد زوجى! ثم استدرك أبى وهو يقول:" والله إنها لهى الفظائع من الظلم والطغيان والإغارة! إن الصهاينة الغاشمين يشترون عقارات المسلمين و أراضيهم بدفع الأثمان الباهظة المغرية ثم يخطفون المبالغ منهم ثم يقتلونهم ليلا أو يكرهونهم على الهجرة بالتهديد والتخويف، وطريقتهم فى ذلك نادرة غريبة جدا فإنهم يشترون الأراضى الزراعية ثم يدبرون إغارة كاذبة على منزل يهودى من أهل الحارة أو القرية وبالتالى تختفى الأسرة اليهودية" المنكوبة" ثم يعلن اليهود الصهاينة قائلين:" والله هذه القرية أو الحارة لم تعد آمنة مطمئنة و بذلك يمهد اليهود الصهاينة طريقا لطرد المسلمين البسطاء المخدوعين ونهب أموالهم ، والذى لا يغادر منزله، رغم هذه الأخطار و التهديدات، يقتله الصهاينة الإرهابيون غيلة!"

" وحين أخبرت الوالد بأن الفتيات من بنات فلسطين هن على أتم استعداد ليشاركن إخوانهن من أبناء فلسطين فى هذا الكفاح ، فقال والدى وهو يخاطبنى: لا يافاطمة! فإن رعاية المنزل والدفاع عنه هو جهاد المرأة المسلمة!" فعارض رأيه محمد على وهو يقول:" لا ياسيدى! لا ياعمى الكريم أرجو عفوك فإن مجال الجهاد أمام المرأة المسلمة واسع جدا! وهو أوسع من المجال الذى يخص الرجال فإن النساء المسلمات لا يستطيعين أن يرعين المنازل و يدافعن عنها إلا إذا تعلمن استخدام السلاح بأنواعه ، وبإمكانهن أن يساعدن الفرسان فى ميدان القتال كما أنهن يقدرن على استخدام السلاح ضد العدو إذا مست الحاجة إلى ذلك ، وأما أنا فقد بدأت أعلم فاطمة وصديقاتها استخدام السلاح و مواجهة العدوان!"

" ثم قال وهو يخاطب أصحابه من الشبان المكافحين : لا يعتدى أحد منكم على الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ المسالمين إلا إذا أراد أحد منهم الاعتداء عليكم أو الحلول دونكم فإذا كان كذلك فعليكم بإخطاره وإنذاره فإن لم يكف عنكم فعليكم باعدامه ولكن بكل رأفة وتلطف! وقد بدأ كفاحنا منذ اليوم وسوف نقاتل على جبهتين، أما نهارا فسوف نمر بكل زقاق وبكل قرية أو حارة ننبه إخواننا على خطورة التنازل عن الأراضى الزراعية أو بيعها لليهود، وأما ليلا فسنركز على اليهود الإرهابيين ونذيقهم طعم الإرهاب و ندينهم كما يدينون !الأبرياء البسطاء من مسلمى فلسطين! وشعارنا : ملائكة الإسعاف المسومين الخضر!!"

" ثم شاهد الناس كما شاهدنا نحن جميعا الجماعات من الشباب تنبه المسلمين و تحرضهم على معارضة اليهود إذا أصبح الصباح و أما ليلا

فكانت الملائكة المسومين الخضر تنزل كالصاعقة على الصهاينة الإرهابيين! فانكف اليهود وتراجعوا وتوقف أعمالهم الإرهابية وكسد بيعهم وشراؤهم مما أدهش الجميع فوقفوا حائرين لا يتقدمون ولا يتأخرون ولم يعرفوا الملائكة المسومين الخضر منهم ومن أين يأتون فقد كانوا يفاجئون العدو بسرعة البرق وبخفة الريح ماشين أو راكبين الخيل أو سائقين السيارات ، وقد استمر ذلك إلى العديد من السنوات وقد أتعبوا الصهاينة الماكرين و أعجزوهم عن كل شئ!!"

" فمعنى ذلك أن شقيقنا كان قدنسى بطله محمد على جوهر؟!" سألت أم سعيدة!! " نسيه يا سلام؟! و أنى له أن ينساه؟ فقد زار قبره أكثر من مرة خلال الأيام الأولى القليلة التى سبقت زواجنا! فقد كان يكثر من قراءة الفاتحة على قبره والحديث إليه بلغته الأردية، وقد أخذنى معه غير مرة و رأيته في المرة الأخيرة وقد استلقى على ظهره و استراح بجانب القبر بكل طمانينة وسكينة ، وقد راعنى ذلك المنظر ولم يغب ولن يغيب عن ناظرى أبد!!"

" وهل تحدث معك عنا يوما يا فاطمة ؟!" قال نيازعلى و قد أرهف أذنيه و أنصت لها.

" ما هذا الكلام يا أخى!؟ " فقد كان جل حديثنا عنكم دائما! و أول عهد تم بيننا بعد الزواج إنما كان هو عن اللقاء بكم والانضمام إليكم فى أقرب فرصة! وقد كان يجلس إلى ابنيه فيتحدث إليهما عن الأسرة ويقول لهما أنكما من أبناء أسرة فاضلة كريمة قد امتازت بخدمتها للإسلام

والمسلمين! سوف نعود بمشيئة الله إلى بلادنا وسوف تقابلون عمكم وزوجته و ابنتيه ويجب أن تحافظ الأسرة على تقاليدها و أمجادها!!"

" وكيف مات أخونا أقصد كيف استشهد فى سبيل الله" سألت أم سعيدة. فتنفست فاطمة بآهة طويلة ثم قالت وهى تحاول أن تغالب دموعها:" إنه قد قاد جماعة الملائكة المسومين الخضر مدة طويلة ، وكان اليهود قد تضايقوا بأعماله التى كان يقوم بها ليل نهار من إيقاظ المسلمين والإغارة على الصهاينة الإرهابين، ولكنهم لم يعرفوا عدوهم ولم يطلعوا على سره ومأتاه وقد شاع بخطأ اقترفه بعض أصحابه من الشاب مما جعل اليهود يعادونه أشد مايكون ويتربصون به الدوائر، و ذات ليلة مظلمة حالكة الظلام ارتفعت صرخات امرأة تستغيث على بابنا، فسارع محمد على إلى الباب وعبثا حاولت أن أمنعه من الخروج و إغاثة الصارخة المجهولة، ففتح الباب فإذا بيهودية تحمل مسدسا مشحونا ولم تمكث لحظة فأطلقت عليه النار دون أى بطء أو تأخير فسمعتها وهى تقول: قد ثأرت اليوم لزوجى ديفيد و ابنى رابين وشفيت نفسى! وقد كان زوجها و ابنها كلاهما من أظلم الإرهابيين وأخطرهم وكانت جماعة الملائكة المسومين الخضر قد قضت عليهما، وكان معى مسدس مشحون فلم أمهل القاتلة اليهودية الإرهابية فاطلقت عليها رصاصة اخترقت صدرها فسقطت على وجهها وفاضت نفسها... و حاولت أن أقيم زوجى الذى قال لى: قد حان لك ولابنيك يافاطمة أن تسافرى إلى باكستان! و أوصيك بهما خيرا و أحب أن أدفن بجنب مدفن البطل محمد على جوهر الذى أعجبت به و أحببته حيا و أتمنى أن أستريح بجنبه ميتا حتى يجمع الله بيننا يوم الحشر بجوار رحمته!!".